محمد اسعاف النشاشيبي

قضى محمد إسعاف النشاشيبي يوم الخميس ٢٢ يناير سنة ١٩٤٨ — ١١ ربيع الأول سنة ١٣٦٧ وحيداً في أحد مستشفيات القاهرة التي كان يحبها حبًّا جمًّا ، والتي كان يفد إليها كل عام من فلسطين فترتقب ندوات الأدب والعلم مجلسه حيث يكون الصدرَ فيه ، محدّثاً وراوياً كأنما وعى تاريخ هذه الأمة العربية كله في صدره يرويه كأنه يقرأ من كتاب ويقصّه كأنه يتلوه من صحيفة. فقد خصّه الله بذاكرة قوية وحافظة لم تتلمّها القيحوخة إلاّ قليلاً .

وكانت زيارة النشاشيبي للقاهرة هذا الشتاء هي آخرُ زياراته ، فهل كان يعلم وهو يودّع فلسطين المجاهدة في سبيل ربّها وحقّها وأرضها أنه وداع لغير عودة ، وأنها رحلة لغير رجعة . وأنه تركها والبأس يفلّ فيها لا هرباً من الجهاد إذا دعا داعيه ، ولا استسلاماً للنجاة ، ولكنه تركها مستشفياً بطب مصر الآسية ، ومستمتعاً بسماء مصر الدافئة الضاحية ولكن الطب خانه هذه المرّة . . فلحوناه : —

والناس يَلحَوْن الطبيب وإنّما خطأ الطبيبَ إصابة الأقدار

كان مجلس النشاشيبي في ندوة فندق « الكونتنتال » مجلساً يملأ السمع والبصر والفؤاد تدور أنّ الرجل في ذاته كان ضئيلاً في جسمه نحيلا في شكله . ولكنه كان يضرع الرجال الطوال بعوارفه ومعارفه ، كأنما كان الشاعر العربي يتحدّث بلسانه في قوله .

إذا كنتُ في القوم الطوال علوتهم بمعارفة . معنى يقال طويل

ولا أذكر أنني تخلفت عن مجلس النشاشيبي في « الكونتنتال » في السنوات الأخيرة إلاّ قليلاً مما ألمّت به ضروراتٌ لم أستطع لها دفعاً . وكان أحبّ الى نفسي أن أبتدر مكاني في الندوة حيث تتحلق الحلقة وتتسع الدائرة ، ويأتي زائر يتفسح بكرسيه في الجلاس فتفسح

له ، ثم نأخذ بأطراف الأحاديث بيننا ، كلٌّ على قدر ما وهب الله له من موهبة الكلام فإذا النشاشيبي يوجه الحديث في المجلس ويديره ، وإذا به يصل الحديث بالقديم ، والحاضر بالماضي ، وإذا هذا الرجل النحيل المعزوي يتحرك كأنما مسّه شحنة من كهرباء ... فتشيع الكهربائية في جنبه اللأمعة ، وفي صوته الجهوري وفي ألقائه الذي يهتز فيه ويضطرب ويقوم ويقعد كأنما يريد أن يجسّم المعاني بهذه الحركات الانفعالية التي لم أشهد لها ضريباً فيمن عرفت من الخطباء . .

على أنّ هذه الجوانب الشخصية من أعمال النشاشيبي ليست غرضاً لي في هذا المقال ، فعند كل أديب اتصل به سيلٌ منها لا ينقطع . وهي جوانب لم ينتقدها إلاّ الذين داناوه وأحسّوا أنهم ودّوها إلى يوم النشور . . . وما تعطلت دورة الأرض ولا تعوّق مسير الحياة ولا خسف القمر لموت مخلوق .. حتى الأنبياء على جلال رسالاتهم . فالحياة ماضية ، وهذه ندوتنا تنعقد كما هي — فإنّ الناس لا يموتون لموت واحد من البشر ... ولكنها عطلت من النشاشيبي وأصبحت منه خلاء . ونحن من السابقين على الأثر . فلم يبقَ إلاّ الجانب العام من حياة الرجال ، وهو أبقى على الأجيال .

* * *

لقد أسهم النشاشيبي في المكتبة العربية ببضعة من الكتب ، تمتاز جميعها إلاّ كتابه « الإسلام الصحيح » بصغر أحجامها وعظم أقدارها . وكلها تدور حول الفكرة العربية التي ملكت على الرجل منافذ حسه . والعربية عند النشاشيبي تتمثل في إثنين : لغة العرب ورجال العرب . وأيما قلبت كتبه فلن تجد فيها غير « عربي » يشيد به النشاشيبي ويرفعه الى مراتب الخلود ، وغير لغة يهون على النشاشيبي أن يموت قبل أن يشهد يوم مماتها وحسبك أن تستعرض كتبه — أو تقرأ عناوينها على الأقل — لتعرف صدق هذه النظرية . فمن كتبه : — « كلمة في اللغة العربية » و « قلب عربي وعقل أوربي » و « العربية وشاعرها الأكبر » و « اللغة العربية والأستاذ الريحاني » و « العربية في المدرسة » . ومن كتبه في أبطال العربية والإسلام : — « البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد أحمد

شوقي » و « العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقي » و « مقام ابراهيم » يقصد به البطل العربي المجاهد : إبراهيم هنانو

لقد حصل النشاشيبي في العربية ملكة سليمة قويمة لم تأته عفواً ولم تهبط إليه اعتباطاً. ولكنه نالها بعد الكد والجد ، والقراءة والحفظ ، والبصيرة والفهم ويقول في ذلك بعبارته اللطيفة : و (إني لا أدري كيف يشعر أن يبلغ الفتى ويفصح ، ويسدد الإقران ويبرع ، ويعيش في العلم بأرحب باع ، ويحل منه في المنبسل اليفاع وهو لم يدأب ولم يشق ولم يطل وقوفه في الشمس ليطول وقوفه في الظل ، ومن الذي أنبأهم أن الاجادة في المقال قريبة المنال)[1].

وأكاد أجزم أن غرض النشاشيبي من كتابه « كلمة في اللغة العربية » هو حث الأدباء على السهر في التحصيل ، وحض الشباب على الدأب في قراءة التراث العربي ، حتى لا يجيء آخر الزمان أديب مفتون أو شاعر مجنون أو كاتب ضعيف يزعم لنفسه أدباً أو شعراً ، وهو معطل الأداة قليل المحصول عديم المعرفة بالأصول . ويظن المكين أن المكانة الأدبية تُنال بألفاظ تسوَّد بها الصفحات .

وإذا كانت العربية صعبة كما يشهد الذين تقذوا إلى أعمالها من أبنائها ، فإن النشاشيبي كان يرى (أن الصعوبات في اللغات دليل خير ودليل ثروة) [2] . ومن أجل هذا سهر من أجل العربية . وعنّى نفسه بها طول حياته ، ونبش — تقريباً — كل كتبها . حتى لم يكن يند عنه كتاب أو يشذ عن محصوله بيت من الشعر أو طرفة من الحديث أو حادثة من التاريخ

ولا أدل على عناء النشاشيبي في سبيل العربية وتعبه في تحصيلها من أنه لم يكد ينتهي من يديه كتاب من كتبها إلا قرأه وحفظ منه وروى عنه . ولقد بدأ ذلك جليًّا في مجموعة « نقل الأديب » التي كان ينشرها في مجلة « الرسالة » على فترات تتقارب حيناً وتتباعد حيناً آخر ، حتى بلغ مجموع ما نشر منها الى عدد ١٩ يناير سنة ١٩٤٨ (٩٦٩) نادرة جمعها على طول العمر كله واختارها من بين مئات من الكتب من أمثال « عيون الأخبار » و « الحيوان » و « شرح نهج البلاغة » و « معجم البلدان » و « خاص الخاص »

(١) « كلمة اللغة العربية » صفحة ٢٢ . مطبعة بيت المقدس (٢) المصدر السابق ص ٢٣

و« اليتيمة » و « تاريخ الطبري » و « نزهة الألباء في طبقات الأدباء » و « الأغاني » و « سيرة ابن هشام » و « البيان والتبيين » و « نهاية الأرب » و « محاضرات الأدباء » و « النجوم الزاهرة » و « الاقتضاب في شرح أدب الكتاب » و « تاريخ بغداد » و « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » و « ثمار القلوب في المضاف والمنسوب » و « نفح الطيب » و « بدائع البدائه » و « الكنايات » و « وفيات الأعيان » و « الروضتين » و « الضوء اللامع »

ولا يظن ظان أن هذا الاختيار الحافل من تراث زاخر بالأخبار والنوادر والطرائف مطلب يسير أو عمل هين ، ولكنه شيء يدل على ذوق مختاره أولاً : وعلى أهدافه ومراميه ثانياً : وعلى مدى نيته من الانتفاع به ثالثاً : ولعلها حيرة أية حيرة أن تقف في روضة مزهرة لتختار أطيب ما فيها شكلاً ولوناً وعرفاً .... وقديماً عبر الشاعر عن مثل هذه الحيرة بقوله : —

تحير في الرياض فليس يدري أيجني الروض أم يجني الأقاحا

ولكن فالنشاشيبي وقف في روضة الأدب العربي والتاريخ العربي الحافل بأمجاده وحكاياته ... فلم يتحير في الرياض ، ولكن هدته بصيرة عربية وفطرة عربية وهمة عربية إلى أن يقطف أطيب ما في الرياض : وهو في ذلك ليس متزمتاً ولا متوفراً ، ولكنه قد يخلع التوفر أحياناً فيروي أطيب الفكاهات ، وألذ شعر المتماجن ، حتى ليسأل سائل كيف يروي النشاشيبي في « نقله » قول سعيد بن حميد :

تنعم من الدنيا فانك فانٍ وإنك في أيدي الحوادث عانٍ
ولا يأتين يوم عليك وليلة فتخلو من شرب وعوف قيان
فاني رأيت الدهر يلعب بالفتى ويتقله حالين تختلفان
فأما التي تعفي فأحلام نائم وأما التي تبقى لها فأماني [1]

وحتى ليسأل سائل آخر كيف يروي النشاشيبي « في نقله » قول حنين بن إسحاق « إنه اتفق له هذه اللقطة الوجيزة الشريفة البديعة التي لم أسمع لبلغاء عقلها في الجمع بين الجناس

(١) نقل الاديب : مجلة الرسالة العدد ٧١٨ ص ٣٩٩

والطباق والترصيع مع حسن المعنى وجودته وصحته وهي : — قليل الراح صديق الروح وكثيره عدو الجسم » . (١)

نعم ! كان لاسعاف النشاشيبي مثل هذه الروايات في « نقله » ، وكثيراً ما كنت أعدها عليه ... ولكنه نشر كثيراً من فضائل النفس العربية حتى خيل اليّ أنه كان يتحدى بها نفوس الناس جميعاً من غير العرب . وكأنه كان يتعمد ذلك تعمداً في « نقله » . ولا أدل على ذلك من هذه الملحة التالية : —

تذكرون يوماً بحضرة محمد بن اسماعيل من ملوك بني نصر في الأندلس معنى قول المتنبي :

أبا خدّد الله وَرْدَ الخدود وقدّ قدودَ الحسان القدود

وقول امرىء القيس :

وإن تك قد ساءتك مني خليقةٌ فسُلّي ثيابي من ثيابك تنسل

وقول ابراهيم بن سهل الاسرائيلي .

إني له من دمي المسفوك مغتفر أقول خجّلتهُ من سفكه خجلا

فقال بديهاً على حداثته : — بينهم ما بين نفس ملك عربي ، وشاعر عربي ، ونفس يهودي تحت الذمة ... وإنما تنفس النفوس بقدر همما) (٢)

وهذه الموازنة الخلقية بين فضيلة النفس العربية ونفس اليهودية كانت تظهر في النقل من حين الى حين .. ! فقد نشر في الرسالة سنة ١٩٤٦ عدد ٦٦٧ بعنوان « وأبناء اليهود » هذه الطرفة التالية : — (قال الصفدي : كان أبو البركات بن ملكا يهودياً وأسلم ، وكان كثيراً مايطعن اليهود ، قال مرة بحضور ابن التلميذ : لعن الله اليهود . فقال : نعم وأبناء اليهود ؟ فوجم أبو البركات لذلك وعرف أنه عناه ...)

***

أما تعصب النشاشيبي للعربية لغةً وجنساً فقد كان بين واضح من كلماته وخطبه ومقالاته فقد كتب كلمة في مجلة الرسالة عن « اللغة العامية والحروف اللاتينية بمناسبة دعوة السيد

(١) عن الرسالة ص ٢٠٢ عدد ٧١١ (٢) عن الرسالة عدد ٧١١ ص ٢٠٢
(٣) الرسالة عدد ٣٣٠ سنة ١٩٤٧

حل فيها حملة من نار على الدعاة للحروف اللاتينية ، ولم يكن في هذه الحملة الثائرة غير راد عن كلام قديم للشيخ أبراهيم اليازجي في مجلة « الضياء » .

وقد بانت هذه الروح قوية في الكلمة التي عنوانها « لبنان والعربية » التي كتبها بمناسبة إنعام رئيس جمهورية لبنان عليه بوسام الاستحقاق المذهب ، حيث قال : (وإنا أمم اللسان الضادي العرب ، وان لغتنا هي العربية ، وهي الارث الذي ورثناه ، وإنا لمتيقنون ، والآباء هم الآباء واللغة هي تلك اللغة بأن نقي عربية الجنس وعربية اللغة — نقي العربيتين مما يضيرها أو يوهنها) (١)

ولقد نقي الجنس العربي بمحنة اليهود كما نقي بهم قبل الاسلام وابان انتشاره ، فصبر العرب لهم وصابروا ورابطوا لانهم يؤمنون بأن الله مع الصابرين ، وقد لا أعرف أن النشاشيبي اشترك مع المجاهدين بمال لانه لا يمالئ بمكرمة ، أو اشترك معهم بسيف لان ثلاث علل قاسية قد اصطلحت عليه فهدته في آخر العهد هدًا . ولكنني أعرف أنه كان يوجه قلمه في كل مناسبة . ولسانه في كل فرصة ، وخاصة حين أعلن قرار تقسيم فلسطين . فاذا « نقل الأديب » كله في شهر ديسمبر سنة ١٩٤٧ يدور حول الجهاد والجلاد والاستشهاد وإذا النفس العربية الكريمة المجاهدة تظهر في مثل هذه الرواية الشعرية عن « عمرو بن براقة » حيث يقول :

كذبتم وبيت الله لا تأخذونها مراغمة ما دام للسيف قائم
متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حميًّا تجتنبك المظالم

وإذا « نقل الأديب » كله في الأسبوع الثالث من ديسمبر الماضي يحمل هذه العناوين « أمثال » في الشجاعة العربية ، « أصيب زوجها وأخوها وأبوها » و « الجنة تحت البارقة » « نحن والله أهل الحرب » « الا بحبث نرى المنايا بأسودا » « فعليكم بالجهاد » « عن أحسابكم ذودوا » كذبتم وبيت الله لا تأخذونها » « نساؤهم كرجالهم » « فأنا أرابط حتى أموت »

وقد برع اللطفي في اختيار العناوين لكل نادرة من نوادر « نقل الأديب » ليكون العنوان أدل على الغرض منها وأقعد الى القصد إليها . وكان يتخير العنوان أحيانًا من النص نفسه . وترى ذلك واضحاً في كتابه « البستان » الذي جمع فيه — لتلاميذ المدارس — أنضر

(١) مجلة الرسالة عدد ٧٢٢ سنة ١٩٤٧

ما في الروضة العربية من ورود . وكذلك لم يكن توفيقه في عناوين « النقل » بأقل من توفيقه في اختيار « النقل » نفسه .

ولم يكن تعصب النشاشيبي للعربية غفلة منه عما للثقافة الأوربية من قيم . فقد كان يعرف الفرنسية ويعرف أحسن ما فيها للعقل والعلم والحضارة . وكان يرى أن الاكتفاء بما نحن فيه لا يهيئنا — كأمة لها ماض مجيد — أن نقتعد مقاعد الغرب اليوم في المؤتمر العالمي. وكان يرى أن الأخذ بأسباب العلم الصحيح — كما فعل الغرب اليوم — هو الطريق الموصل باشتراب إلى استعادة مجدهم . وكان يعالن بذلك في مجالسه وفي كثير مما يكتب ، حتى كان كتابه القيم : — (قلب عربي وعقل أوربي) الذي يقول فيه : — (تلكم مدنية الغرب فنظير كل الخير في أن نعرفها ، والشر كل الشر في أن نجهلها ، وإنا إذا عاديناها وهي السائدة الساطية استعلتنا ، وإنا اذا نابذناها ونبذنا عليها حقرتنا ، وهي مدنية قد غمرت الكرة الارضية . فليس عنها عاصم وإن أويت الى المريخ)[1] ويقول في موطن آخر : (فالعربي الذي يكره الينا هذه المدنية — يعني الغربية — ويثلب علمها ونظامها وفنها ، ويسخر من روادها لا يروم — وحياتكم — أن نحيا في هذا الوجود أو أن نسود ، بل يريد أن نبيد أو أن نعود في الناس مثل العبيد)[2]

وقد يظن من يرى تعلق النشاشيبي بقديم العرب وجنوحه الى الغرب من الأساليب وميله الى رواية الأخبار أنه رجل قديم النزعة رجعي الفكرة ، ولكنه — رحمه الله — كان جامعاً بين القديم والجديد ، حتى لقد استوى منه مزاج عجيب خاص يجمع بين عربية القلب وغربية العقل . . . . وما أحوجنا في هذه الأيام الى قلوب عربية في عقول — لا في عقليات — غربية .

أحسن الله الى اسعاف النشاشيبي قدر ما أحسن الى العروبة لغة وجنساً .

عمر عبد الله حسن

(١) قلب عربي وعقل أوربي . ص ١٣ (٢) المرجع السابق . ص ١٥